تخيير النبيِّ صلى الله عليه وسلم
قبل الموت
دراسة عقديَّة

دكتور/ كمال محمد دين محجوب عبده
أستاذ العقيدة المشارك بقسم الدراسات الإسلامية
كلية الشريعة والقانون ــ جامعة الجوف

المستخلص:

يتطلع الباحث إلى بيان المراد بتخيير النبي ﷺ قبل الموت في اللغة والشرع، وحقيقة ذلك الأمر، وبيان تفاصيله من حيث: تعيين المخيَّر، والمخيَّر بينهما، وعدد مرات التخيير، والملَك الذي جاء بالتخيير، وجواب النبي ﷺ على ذلك التخيير.

الكلمات المفتاحية:
التخيير، الرفيق الأعلى.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: فإن الله ﷻ قد جعل لحياة كل عبد نهاية وفناء، وضرب لذلك أجلاً محدداً، وموعداً نافذاً، لا يتأخَّر ولا يتبدَّل، يبغَتُ فجأةً، فلا يحتمل مُكنة تأجيل، أو يسبقه إعلام فيُرتجى بعده استئذان أو تخيير، فلا مناص لكل العباد أجمعين أكتعين من تحقق ذلك الأجل المباغِت عليهم، ورجوعهم إلى خالقهم ومبديهم عبر هذا السبيل الذي قضاه جل جلاله.

واستُثني من وقوع هذا الحكم العام والحدث المدلهم على ذلك الوجه العظيم كرامُ الخلق على ربهم، وأصفياؤه منهم، أنبياؤه ورسله عليهم السلام، فإنه جلَّ شأنه قد خصَّهم بخصيصة دون غيرهم بأنهم إذا اقترب أجلهم، وأزف وقت وفاتهم بأنهم يُخيَّرون بين البقاء في الدنيا والخلود فيها، أو مفارقتها والانتقال إلى الآخرة؛ تشريفاً لهم، وتعظيماً لمكانتهم. قال النبي ﷺ:" مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرَضُ إِلا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ".(١)

وقد استبان هذا التخصيص الكريم والتشريف العظيم فيما حصل لنبينا محمدٍ ﷺ، فقد وردت السنة المطهرة تحكي تفاصيله، وترشد على وقائعه، التي فيها ما فيها من المسائل المنيفة والدلائل الدقيقة.

ومن هنا عقدت العزم على البحث في هذه الخصيصة الكريمة لنبينا ﷺ وما اشتملت عليه من منيف المسائل ودقيق الملاحظ والدلائل مستعيناً بعد الله تعالى بالمنقول، مستنيراً بصحيح المأثور، ومسترشداً بأقوال أهل العلم في ذلك.

مشكلة البحث: تكمن مشكلة البحث في بيان حقيقة المراد بتخيير النبي ﷺ قبل الموت، وذلك من خلال ما ورد فيه من نصوص شرعية، وأقوال العلماء في إيضاح معانيه، وما يتعلق به من مسائل عقدية مهمة، والعمل على بيان ذلك بياناً شافياً، بالرغم من قلة المنقول في شأنه، وشح موارد ومظان مسائله وتناثرها في طيَّات الكتب.

حدود البحث: يقتصر البحث في الكلام على تخيير النبي ﷺ قبل الموت، وأهم وأبرز المسائل العقدية المتعلقة به، وبيان دلائله.

أهداف البحث: يمكن أن توضح أهم أهداف هذا البحث في النقاط التالية:

١. بيان حقيقة تخيير النبي ﷺ قبل الموت.

(١) متفق عليه، صحيح البخاري: ك/ التفسير، باب: فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين (٤/٤٦) رقم (٤٥٨٦)، صحيح مسلم: ك/ فضائل الصحابة ﷺ، باب: من فضائل عائشة رضي الله عنها (٩٩١) رقم (٢٤٤٤).

٢. الوقوف على أهم وأبرز المسائل والدلائل العقدية المرتبطة به.

المنهج المتبع في البحث: اتبعت في البحث المنهج الاستقرائي، والوصفي التحليلي لموضوع البحث، وسرت في ذلك على النحو التالي:

١. استقراء وجمع المادة العلمية من مظانِّها، وتناولها على ما سيأتي في الخطة، والتوثيق العلمي للنقول والأقوال من مصادرها.

٢. كتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني، وعزوها إلى مواضعها في المصحف الشريف، بذكر اسم السورة ورقم الآية، ويكون ذلك في حاشية البحث.

٣. عزو الأحاديث والآثار إلى مصادرها، مقتصراً على الصحيحين أو أحدهما إن كان فيهما، أو في أحدهما، وإلا فممَّا تيسر من كتب الحديث، مكتفياً في ذلك بذكر رقم الحديث، أو الأثر، مع ذكر الحكم عليه من كلام أهل العلم، ووضع فهرس للمراجع والمصادر في آخر البحث.

٤. دراسة وتحليل النصوص الواردة في شأن التخيير، وتصنيفها وتوصيفها، والجمع بينها وبين ما ظاهره معارضتها أو معارضة أحد خيارات التخيير، مستنداً في ذلك على المنقول من كلام أهل العلم من السلف والخلف رحمهم الله تعالى، مقرراً ما يعتقده أهل السنة والجماعة والاستدلال لأقوالهم في ذلك.

الدراسات السابقة: بلا شك أن موضوع خصائص الأنبياء من الموضوعات الهامة التي تطرق لها العديد من الباحثين، لكني سأستعرض لأبرز الدراسات السابقة التي تتعلق بخصوص موضوع البحث، والتي منها:

١. مسائل النبوة من كتاب أحاديث الأنبياء من الجامع الصحيح للإمام البخاري. دراسة عقدية. للباحثة: صفية الأمير. مقدمة بكلية التربية بجامعة الملك سعود لنيل درجة الماجستير للعام ١٤٢٠ هـ. وكان نصيب موضوع البحث من الرسالة، في مطلب واحد بعنوان: تخيير الأنبياء عند الموت، وجاء في صفحة واحدة اقتصرت فيها الباحثة ــ وفقها الله ــ على التقديم للمسألة بقولها:" ومن الخصائص التي اختص بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: أنهم يخيرون عند الموت بين الدنيا والآخرة، وأنهم يختارون الآخرة ونعيمها على الدنيا ومتاعها، ثم أوردت ثلاثة أحاديث من أحاديث الجامع الصحيح في هذه المسألة، ثم علقت عليها بقولها:" ومن النصوص السابقة نخلص إلى أن الأنبياء يخيرون عند موتهم بين الدنيا والآخرة، وأنهم يختارون الآخرة الباقية على الدنيا الفانية، والله المستعان". ص (٢٥٣).ويظهر جليًّاً بما ذكر عن هذه

الرسالة عدم التعرُّض لكثير من مباحث هذا التخيير وفق الخطة المقدمة في هذا البحث.

٢. الصفات والخصائص المشتركة بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من خلال الكتاب والسنة، رسالة ماجستير، بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، للباحث أمان الله بن محمد إسماعيل.

واقتصر الباحث ـــ وفقه الله ـــ على مجرد إيراد الأدلة الواردة في مسألة التخيير، ولم يتعرض للمسائل المتضمنة له، ولا دلائلها.

وهذا البحث المقدم له ههنا يمتاز عن ما سبقه مما ذكر بدراسة وتحليل وتوصيف هذه الحادثة العظيمة والنظر في أدلتها، ودلالاتها.

خطة البحث: جعلت البحث في مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

أما المقدمة: فتشتمل على الافتتاحيةِ، فمشكلة البحث، ثم حدوده وأهدافه، والمنهج المتبع فيه، والخطةِ. وجاءت الخطة فيه على النحو التالي:

المبحث الأول: معنى التخيير في اللغة والاصطلاح، والمراد من تخيير النبي ﷺ قبل الموت في الشرع، وأدلته. وفيه مطالب:

المطلب الأول: معنى التخيير في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثاني: المراد من تخيير النبي ﷺ قبل الموت في الشرع، وأدلته.

المبحث الثاني: تفاصيل تخيير النبي ﷺ قبل الموت. وفيه مطالب:

المطلب الأول: تعيين المخيَّر.

المطلب الثاني: المخيَّر بينهما.

المطلب الثالث: عدد مرات التخيير.

المطلب الرابع: هيئة التخيير، والملَك الذي جاء بالتخيير.

المطلب الخامس: بعض الحكم المتضمِّنة للتخيير.

المبحث الثالث: جواب النبي ﷺ لدى تخييره قبل الموت. وفيه مطالب:

المطلب الأول: الألفاظ المنقولة في جواب التخيير.

المطلب الثاني: معاني الألفاظ المنقولة في جواب التخيير.

المطلب الثالث: دلالات الألفاظ المنقولة في جواب التخيير.

وأخيراً فهذا جهد المقل، فما كان فيه من صواب فمحض توفيق الله سبحانه والمنَّة له، وما كان غير ذلك فجبلَّة النفس الأمارة بالسوء، ونزغ الشيطان الرجيم، والله وحده المسؤول أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، ويُتَمِّمَ نفعه على كاتبه وقارئه، إنه أكرم مسؤول وأرجى مأمول، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

المبحث الأول: معنى التخيير في اللغة والاصطلاح، والمراد من تخيير النبي ﷺ قبل الموت في الشرع. وفيه مطالب:

المطلب الأول: معنى التخيير في اللغة والاصطلاح.

التخيير مصدر خيَّر على وزن تفعيل، وخيَّره بين شيئين: فوَّض إليه الخيار،(١) والاسم منه: الخِيَرَة والخِيْرَة (٢) والاختيار، وهي بمعنى واحد، وقيل: ما كان بالفتح (الخِيَرَة) فهو اختيار الله سبحانه،(٣) ومنه قوله تعالى:﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص:٦٨]، وقوله تعالى:﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[الأحزاب:٣٦].

ويقال: تخيَّر الشيء واختاره، أي: اصطفاه وانتقاه.

وإذا تعدَّى الاختيار بـ (على) كان معناه التفضيل، ومنه: اخترتُ فلاناً على فلان، أي: فَضَّلته، فيظهر أن الاختيار مضمَّنٌ معنى التفضيل، فلا يختار أحدٌ شيئاً من اثنين، إلا وقد كان مفضِّلاً لما اختاره على الآخر.

والاستخارة: طلب الخِيَرَة، وهو استفعال منها، وفيه حديث دعاء الاستخارة المعروف(٤)، ويقال: استخر الله يَخِرْ لك، أي: يختار لك.(٥)

وأما في الاصطلاح فالاختيار هو:" إرادة الشيء بدلاً من غيره".(٦)

وهذا صريح في أن الاختيار يكون بالاصطفاء لأحد الشيئين على الآخر على وجه البدل، وهو معنى إن لم يكن قريب من المعنى اللغوي فهو مطابق له كما هو ظاهر.

المطلب الثاني: المراد من تخيير النبي ﷺ قبل الموت في الشرع، وأدلته.

المعنيان اللغوي والاصطلاحي المتقدِّم ذكرهما لا يبعدان عن المعنى الشرعي المقصود بتخيير النبي ﷺ قبل الموت، فبالنظر إلى مجموع النصوص الواردة فيه يظهر أن معناه في الشرع: أن يُخَيَّر النبي ﷺ بين الدنيا وبين الآخرة قبل الوفاة سواء وقت الاحتضار أو قبله بمدة، فيُخَيَّر بين البقاء بين ظهراني البشر، أو الانتقال إلى كُمَّل الخلق من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.(٧)

---

(١) انظر: تاج العروس للزبيدي (٢٤٦/١١).

(٢) ولم يرتضِ الفيومي (الخِيْرة) بالإسكان. انظر: المصباح المنير (٢٥٣/١).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٩١/٢).

(٤) وهو قوله ﷺ:" اللهم إني أستخيرك بعملك وأستقدرك بقدرتك... الحديث" انظر: صحيح البخاري: ك/ التهجد، باب: ما جاء في التطوع مثنى مثنى (٥٦/٢) رقم (١١٦٢).

(٥) انظر: لسان العرب لابن منظور (١٢٩٩-١٣٠٠)، المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٢٥٥/٥)، مختار الصحاح (١٩٦).

(٦) انظر: الفروق اللغوية للعسكري (٢٨).

(٧) انظر: عمدة القاري (٨٣/١٨).

وقد جاء في نصوص السنة المطهرة عدد من الأدلة التي تثبت وقوع التخيير للنبي ﷺ قبل الموت، فيما يلي ذكرها:

١. عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: خطب رسول الله ﷺ الناس فقال:" إن الله خيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد [١] ما عند الله، قال: فبكى أبو بكر، فعَجِبنا لبكائه، أن يُخبر رسول اللهﷺ عن عبدٍ خُيِّر، فكان رسول الله ﷺ هو المُخَيَّرَ،[٢] وكان أبو بكر أعلَمنا، فقال: يا أبا بكر، لا تبكِ".[٣]

٢. وفي رواية:" إنَّ عبداً خَيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده، فبكى أبو بكر وبكى، فقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا".[٤]

٣. وعن عائشة رضي الله عنها قالت:" كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيحٌ:" إنه لم يُقبَضْ نبيٌّ قط حتى يَرَى مقعده من الجنَّة، ثم يُخيَّر"، فلما نزل به، ورأسه على فخذي، غُشِي عليه ساعة، ثم أفاق، فأشخص بصرَه إلى السقف، ثم قال:" اللهمَّ الرفيق الأعلى"، قلت: إذاً لا يختارنا، وعَرَفتُ أنه الحديث الذي كان يُحدِّثنا به وهو صحيحٌ، قالت: فكانت تلك آخرَ كلمة تكلَّم بها النبي ﷺ قوله: اللهمَّ في الرفيق الأعلى".[٥]

٤. وفي رواية:" قالت كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول:" إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يُحَيَّا [٦] أو يُخَيَّر، فلما اشتكى وحضره القبض ــ ورأسه على فخذ عائشة ــ غُشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت، ثم قال: اللهم في الرفيق الأعلى، فقلت: إذاً لا يجاورنا، فعرفت أنه حديثه الذي كان يُحَدِّثنا وهو صحيح".[٧]

---

(١) سيأتي الكلام على هذا الإبهام فيما سيأتي إن شاء الله.

(٢) (المُخَيَّر) على النصب: فيكون إعرابه خبر كان، و (هو) ضمير فصل، ونُقل بالضم (المُخَيِّرُ) فيكون إعرابه خبر (هو)، والجملة خبر كان. انظر: عمدة القاري (٥٢/١٧)، حاشية السندي على صحيح البخاري (١٣٢/٢).

(٣) متفق عليه، صحيح البخاري: ك/ الصلاة، باب: الخوخة والممر في المسجد (١٠٠/١) رقم (٤٦٦)، صحيح مسلم: ك/ فضائل الصحابة ﷺ، باب: من فضائل أبي بكر ﷺ (٩٧١) رقم (٢٣٨٢).

(٤) متفق عليه، صحيح البخاري: ك/ مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٥٦/٥) رقم (٣٩٠٤)، صحيح مسلم: ك/ فضائل الصحابة ﷺ، باب: من فضائل أبي بكر ﷺ (٩٧١) رقم (٢٣٨١).

(٥) متفق عليه، صحيح البخاري: ك/ المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته (١٠/٦) رقم (٤٤٣٧)، صحيح مسلم: ك/ فضائل الصحابة ﷺ، باب: من فضائل عائشة رضي الله عنها (٩٩١) رقم (٢٤٤٤).

(٦) يُحيَّا: يشمل معنى إلقاء التحية بالسلام عليه، وكذلك يُحال إليه نهاية حياته، فيُسلَّم إليه شأن ذلك. انظر: عمدة القاري (٨٣/١٨-٨٤).

(٧) صحيح البخاري: ك/ المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته (١٠/٦) رقم (٤٤٣٧).

٥. وفي رواية أخرى:" فسمعت النبي ﷺ في مرضه الذي مات فيه: وأخذتْه بُحَّةٌ [١] يقول:﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾[النساء: ٦٩]، قالت: فظننتُ أنه خُيِّر يومئذٍ".[٢]

٦. وعن عائشة رضي الله عنها أنها سمعت النبي ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت وهو مسند إليَّ ظهره يقول:" اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق".[٣]

٧. وفي رواية:" فإذا بصره قد شخَص، وهو يقول: بل الرفيق الأعلى من الجنة، فقلت: خُيِّرت فاخترتَ، والذي بعثك بالحق".[٤]

٨. وعنها رضي الله عنها قالت:" كان رسول الله ﷺ يقول: ما من نبي إلا تُقبض نفسه، ثم يرى الثوابَ، ثم تُردُّ إليه فيخيَّر بين أن تُرَدَّ إليه إلى أن يلحق، فكنت قد حفظت ذلك منه، فإني لمسندتُه إلى صدري فنظرت إليه حتى مالت عنقه، فقلت قد قضى، قالت: فعرفت الذي قال، فنظرت إليه حتى ارتفع، فنظر، قالت: قلت إذن والله لا يختارنا، فقال:" مع الرفيق الأعلى في الجنة﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾".[٥]

٩. وعن أبي مويهبة [٦] قال:" بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل، فقال: يا أبا مويهبة، إني قد أُمرت أن أستغفر لأهل البقيع، فانطلق معي، فانطلقتُ معه، فلما وقف بين أظهرهم قال: السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهْنِ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس، لو تعلمون ما نجاكم الله منه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع أولها آخرها، الآخرة شر من الأولى، قال: ثم أقبل عليَّ، فقال: يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، وخُيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربي ﷻ، والجنة، قال: قلت بأبي وأمي فخذ مفاتيح الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، قال: لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي ﷻ والجنة".[٧]

---

(١) البُحَّة: غلْظة في الصوت. وهي لم تكن من هيئة صوته ﷺ، وإنما اعترض له شيء في مجاري النفس فتغيَّر صوته ﷺ فأصبح غليظاً. انظر: عمدة القاري (٨٢/١٨)، النهاية في غريب الأثر (٩٩/١)، معجم مقاييس اللغة (١٧٤/١)، لسان العرب (٢١٥/١).

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري: ك/المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته (١٠/٦) رقم (٤٤٣٥)، صحيح مسلم: ك/ فضائل الصحابة، باب: في فضل عائشة (٩٩١) رقم (٢٤٤٤).

(٣) متفق عليه، صحيح البخاري: ك/المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته (١١/٦) رقم (٤٤٤٠)، صحيح مسلم: ك/ فضائل الصحابة، باب: في فضل عائشة (٩٩١) رقم (٢٤٤٤).

(٤) مسند أحمد (٣٦٧/٤٣) رقم (٢٦٣٤٧).صححه الألباني في تخريج فقه السيرة النبوية لمحمد الغزالي (٣٦٠).

(٥) مسند أحمد (٥١٠/٤٠) رقم (٢٤٤٥٤).وثق الهيثمي إسناده. انظر: مجمع الزوائد (٥٩٤/٨) رقم (١٤٢٤٨).

(٦) أبو مويهبة: ويقال أبو موهبه وأبو مهويه، مولى رسول الله ﷺ، لم يُوقف له على اسم، وقيل: اسمه مخبر بن معاذ، من مولدي مُزينة، اشتراه النبي ﷺ ثم أعتقه، شهد غزوة المريسيع، وكان يقود لعائشة رضي الله عنها جملها. انظر: أسد الغابة لابن الأثير (٣٠٩/٥)، أسماء من يعرف بكنيته من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي الفتح الأزدي (٤٧)، الاستيعاب لمعرفة الأصحاب لابن عبد البر (٨٥٤) رقم (٣١٤٦)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (١٨٤/٧) رقم (١٠٩٤).

(٧) مسند أحمد (٣٧٦/٢٥) رقم (١٥٩٩٧).حسَّن إسناده ابن عبد البر. انظر: الاستيعاب (٨٥٤) رقم (٣١٤٦).

هذه أبرز وأهم ومجمل النصوص الواردة في هذه الخصيصة الشريفة بتخيير النبي ﷺ قبل الممات بين الدنيا والآخرة، ويتجه النظر فيها بالتنويه على أمرين:

الأول: من جهة الثبوت: فهي في أعلى المقامات، فأصلها ثابت في الصحيحين، وورد في غيرها من دواوين السنة بطرائق جيدة.

الثاني: من جهة الدلالة: فهي في غاية الصراحة والبيان، في إثبات وقوع التخيير للنبي ﷺ، بل وتكراره، كما سيأتي بيانه لاحقاً بإذن الله تعالى.

وقد اشتملت هذه النصوص المثبتة للتخيير على مسائل عديدة، يأتي تفصيلها في المبحث التالي.

المبحث الثاني: تفاصيل تخيير النبي ﷺ قبل الموت. وفيه مطالب:

إذا استعرضنا النصوص السابقة نجد أن في مضمونها من المعاني عدداً من المسائل التي تصبُّ في بيان حقائق التخيير وتفاصيله بما يمكن أن يُسرد على النحو الآتي:

المطلب الأول: تعيين المخيَّر.

فمن أوَّل ما يمكن أن يبحث في مدلولات النصوص السابقة هو استكشاف المخبَر عنه، والاستفهام عن المعنيِّ بهذا الخبر، ومَنْ هو الذي وقع عليه، وبعبارة أصرح: مَنْ هو المخيَّر ؟

فنجد أنَّ النبي ﷺ لم يصرِّح بتعيين المخيَّر، وأنَّ المقصود هو أو غيره ﷺ، بل الإطلاق دون التقييد، والإبهام لا التعيين، والتنكير وليس التعريف هو ظاهرُ الخبر الذي ورد كما في قوله ﷺ:" إنَّ الله خَيَّر عبداً"، ولهذا لم يتبيَّن مجمل الصحابة الكرام ﷺ مراده ﷺ بما ذكر في شأن التخيير، وتملَّكهم التعجُّب الواضح مما سمعوا من خطابه الشريف ﷺ.[1]

وإنما استفيد تعيينه بأنه هو المخيَّر ﷺ من خلال المنقول عن فهم الصحابة ﷺ، وذلك من وجهين:

أول ما يُمثل للناظر في هذا الباب يجد أنَّ أبا بكر ﷺ هو أول من عرف المعنيَّ بالتخيير، ولهذا كان موقف أبي بكر ﷺ من أعظم ما أعان الصحابة على فهم ذلك الخبر.

وأما **الثاني** فهو ما فهمه الناقلون لخبر التخيير كأبي سعيد ﷺ وعائشة رضي الله عنها.[2]

(١) انظر: مرقاة المفاتيح (١٠٢/١).

(٢) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١٤٦/٣).

وجاء هذا في قول أبي سعيد ﷺ:" فكان أبو بكر أعلَمنا"، وهو محتمل للعلم بالنبي ﷺ وبكلامه.(١)

وقول عائشة رضي الله عنها:" وعَرَفتُ أنه الحديث الذي كان يُحدِّثنا به". وهو نفس فهم أبيها ﷺ جميعاً.(٢)

وما فهمه الناقلون إما أنه مبني على فهم أبي بكر أو موافقاً لفهم أبي بكر ﷺ، فمثال الأول: خبر أبي سعيد ﷺ، ومن الثاني: خبر عائشة رضي الله عنها.

ولذلك يُعدُّ هذا الموقف العصيب من جملة ما ظهر فيه فقه أبي بكر ﷺ ومكانته ومنزلته بين الصحابة ﷺ،(٣) وذلك يستبين في النقاط التالية:

١. لأنه وقع في حضرته ﷺ، ولم ينكره، ولا استغربه صلوات الله وسلامه عليه. بل ورد عنه ﷺ ما يفهم به إقراره لفهم أبي بكر، وذلك من وجهين:
الأول: أنه قال له ﷺ:" يا أبا بكر لا تبكِ". فنهاه ﷺ عن الحزن والأسى على فراقه، ولم يكن منه ﷺ من المقال ما ينفي صحة فهمه مثل أن يقول له:" لستُ أعني نفسي"، ولو كان فهمه ﷺ مجانباً لمقصد كلامه ﷺ لما تأخر ﷺ في البيان، كما هو دأبه ﷺ.
الثاني:أن قول أبي بكر ﷺ:" فديناك بآبائنا وأمهاتنا"، صريح في فهمه بتعيين المخير، ولم ينكره ﷺ.
٢. ولأنه ربط بين مقال النبي ﷺ وبين القرينة المصاحبة لإخباره ﷺ بالتخيير، وهي مرضه ﷺ، فأدرك أنَّ المعنيَّ هو نفسُه ﷺ.(٤)
٣. ولأنه أدرك ﷺ المقصود حال ذكره ﷺ للأمر، بمشهد من جملة الصحابة، فانفرد أبو بكر دونهم جميعاً بما وقع منه ﷺ، ولم يحتجْ في تعيين المخيَّر إلى تفكير ولا رويَّةٍ للنظر والبحث بعد انقضاء ذلك المجلس، كما وقع لغيره من الصحابة ﷺ، وما كان كذلك إلا لوفور علمه وفطنته ﷺ، وقربه من النبي ﷺ، وفهمه وإدراكه مقاصد حديثه الشريف صلوات الله وسلامه عليه.(٥)
٤. إقرار الصحابة ﷺ بأفضلية أبي بكر ﷺ، وهو صريح في قول أبي سعيد في ختام الحديث، " فكان أبو بكر أعلَمنا".

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر (١٢/٧).
(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر (١٣/٨).
(٣) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧٨/١١).
(٤) انظر: فتح الباري (١٢/٧).
(٥) انظر: مجمع الفتاوى لابن تيمية (١٣٢/٢).

فعُلم بهذا الفهم من الصحابة الكرام لمقال النبي ﷺ الوارد في هذه المسألة العظيمة المعنى أن المخيَّر بين البقاء في الدنيا أو الانتقال إلى ما عند الله في الدار الآخرة هو النبي ﷺ، وأنَّ ذلك الفهم عضَّده الإقرار النبوي الكريم، ولم ينقل خلاف له بين الصحابة فأشبه أن يكون محل اتفاق في صحة التعيين.

لكن إن أورد سؤال عن الغرض من هذا الإبهام لعين المخيَّر، ولماذا لم يقع التعيين فيه؟

نجد في الجواب أن أهل العلم اجتهدوا في البحث عن الحكم المضمنة في هذا الإبهام ومحاولة الربط بين الحال والمقال، وكانت من أبرز تلك الحكم ما يلي:

١. أنَّ النبي ﷺ أراد أن يستخرج ما في نفوس كبار أصحابه من الفهم لألفاظه وعباراته.(١)

٢. أن يظهر فضل أبي بكر ﷺ على سائر الصحابة ﷺ.(٢)

ولهذا ألحق النبي ﷺ كلامه عن التخيير، ـــــ بعد ما كان من أبي بكر ﷺ من البكاء والتفدية ـــ بما به استبانت منزلته وتفضيله على غيره مطلقاً، فقال ﷺ:" إنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ في صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيْلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً".(٣)

٣. حتى لا يأسَ الصحابة ويحزنوا ويغتموا بقرب وفاته ﷺ، وذلك لعظم محبتهم رضي الله عنهم له ﷺ، وتعلقهم ببقائه بين ظهرانيهم.

٤. لكيلا يأسف الصحابة على اختيار النبي ﷺ للانتقال دون البقاء بين ظهرانيهم مع شدة حبه وحبهم، فيكون في نفوسهم شيئاً.

المطلب الثاني: المخيَّر بينهما.

مرَّ معنا في تعريف التخيير في اللغة أنه يقع بين أمور متعددة، أقلها اثنان، وإذا استعرضنا المنقول الوارد في تخيير النبي ﷺ عند الوفاة نقف عندئذ على عدد من الألفاظ التي تعددت فيها الأمور المخيَّر بينها، ومن أشهرها ما يلي:

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١٥٠/١٥).

(٢) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم للقرطبي (١٠٦١/٣).

(٣) صحيح البخاري: ك/ فضائل الصحابة، باب: قول النبي ﷺ:" لو كنت متخذاً خليلاً" (٤/٥) رقم (٣٦٥٦).

١. قوله ﷺ:" إِنَّ اللهَ خَيَّرَ عَبْدَاً بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَه".(١) وفي لفظ مسلم:" زَهْرَةَ الدُّنْيَا".(٢)

٢. قول عائشة رضي الله عنها:" فَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ ... يقول:﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾[النساء: ٦٩]".(٣)

٣. قوله ﷺ:" إِنِّي أُعْطِيْتُ أَوْ قَالَ خُيِّرت مَفَاتِيْحَ ما يَفْتَح عَلَى أُمَّتي مِنْ بَعْدِي وَالجَنَّة أَوْ لقاء ربي".(٤)

٤. قوله ﷺ:" وَخُيِّرْتُ بَيْنَ أَنْ أَبْقَى حَتى أَرَى مَا يُفْتَحُ عَلَى أُمَّتِي وَبَيْنَ التَّعْجِيْلِ، فَاخْتَرْتُ التَّعْجِيْلَ".(٥)

وبالرغم من تعدَّد النصوص في بيان المخيَّر فيه، ومحله، فإنَّ جماعهما يبقى مقتصراً على خيارين بينهما بون شاسع وفرق ظاهر:

الخيار الأول: البقاء الأبدي، وهو معنى الخلود في دار الدنيا، والتمتع بخيراتها.(٦)

وهذا الخيار الأول في ثناياه أمور:

١. أنه موافق لما استقر في جِبِلَّة البشر من محبة زخرف الحياة الدنيا والتمتع بها، وديمومتها وعدم مفارقتها.(٧) ولو لم يكن هذا الخيار محبوباً للنفس لما ناسب عرضه.

قال تعالى:﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران:١٤].

ويدل لها قوله ﷺ:" إِنَّ عَبْدَاً خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ **يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ**، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَه، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَبَكَى، فَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا".(٨)

ولهذا كانت تلك المزيَّة الكامنة في طبيعة الخِلْقَة المستقرة في الفطرة، مما عمل الشيطان عمله فيها بالوسوسة والتزيين، وغرَّ بها الأبوين الكريمين آدم وحواء عليهما

(١) متفق عليه، صحيح البخاري: ك/ الصلاة، باب: الخوخة والممر في المسجد (١٠٠/١) رقم (٤٦٦)، صحيح مسلم: ك/ فضائل الصحابة ﷺ، باب: من فضائل أبي بكر ﷺ (٩٧١) رقم (٢٣٨٢).

(٢) صحيح مسلم: ك/ فضائل الصحابة ﷺ، باب: من فضائل أبي بكر ﷺ (٩٧١) رقم (٢٣٨١).

(٣) صحيح البخاري: ك/المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته (١٠/٦) رقم (٤٤٣٥).

(٤) مسند الإمام أحمد (٣٧٤/٢٥) رقم (١٥٩٦٦).ضعَّف إسناده محققو المسند.

(٥) مصنف عبد الرزاق (٩٩/١١) رقم (٢٠٠٣٤).قال الحافظ ابن كثير:" قال البيهقي: وهذا مرسل، وهو شاهد لحديث أبي مويهبة".البداية والنهاية (٢٤٤/٥).

(٦) انظر: تفسير البغوي (/٣١٨)، الوجيز للواحدي (٧١٥/١)، عمدة القاري (١٠٢/٣٣).

(٧) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٢٦/١٦)، روح المعاني للألوسي (١٥٧/٧).

(٨) تقدم تخريجه ص (٧).

السلام حين عرض عليهما الأكل من الشجرة، وأقسم يؤكد بحصول الخلد الأزلي لآكل ثمرها.(١)

قال تعالى:﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[الأعراف:٢٠].

وقال تعالى:﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾[طه:١٢٠]

مع أن ذلك الخلود الوارد في شأن آدم وحواء عليهما السلام خلود في الجنة التي لا يكون فيها ما يكدرها من الأسقام والأمراض، بخلاف حياة الدنيا فإنها مشوبة بما يعكرها من عوارض الضنك والكَبَد، ملازمة له، ولاشك أن تعلق النفس بخلودِ حياةٍ هذا وصفها أعظم مما دونها من حياة، وبالرغم من كل ذلك فإنَّ محبة الخلود في هذه الدنيا ــ كيفما كانت تلك الحياة ــ فهي كذلك تبقى في جبلة النفس غير منفكة عنه.

كما أنه كذلك وإن حُمل الخلد ــ المعروض من إبليس على أبوينا عليهما السلام على رأي بعض أهل العلم ــ على البقاء الطويل والمكث دون دوام البقاء غير المنقطع فإنه مفارق الخلد الذي خُيِّر فيه ﷺ فإنه خلد لا يقطعه إلا قيام الساعة.(٢)

٢. أنَّ الخلود صفة كمال، والفناء نقص، "والخالد أكمل من الفاني".(٣)

٣. أنَّ كمال نعمة الحياة بديمومتها، وفي استمرار حياته ﷺ استمرار لإيمان أعظم الخلق، وديمومة الإيمان وأعماله من أجلِّ القُرَب.(٤)

٤. أنَّ تأخير أجل النبي ﷺ من مزيد النعم، وزيادة بقائه ﷺ خير لأمته، ورحمة من الله بالخلق، لما في ذلك من الخير لأمته جمعاء؛ بأخذ حُجَزِ الناس عن النار.

قال ﷺ:" وإنه لا يزيد المؤمنَ عُمْرُهُ إلَّا خيرا".(٥) وقال تعالى:﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الملك:٢٨].(٦)

قال الطاهر بن عاشور ــ رحمه الله ــ": وإنما سمَّى الحياة رحمة له ولمن معه؛ لأن في حياته نعمة له وللناس ما دام الله مقدراً حياته، وحياة المؤمن رحمة؛ لأنه تكثر له فيها بركة الإيمان والأعمال الصالحة".(٧)

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان لابن القيم (٢١٤/١).

(٢) انظر: أضواء البيان (٧٠٨/٤).

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٣٥/٤).

(٤) انظر: فتح الباري لابن حجر (٢٢١/١٣).

(٥) صحيح مسلم: ك/ الذكر والدعاء، باب: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه (١٠٧٧) رقم (٢٦٨٢).

(٦) انظر: تفسير البغوي (١٨٠/٨)، روح المعاني (٢١/٢٩).

(٧) التحرير والتنوير لابن عاشور (٥٢/٢٩).

٥. كما أنه أمان من العذاب، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال:٣٣].(١)

الخيار الثاني: مفارقة دار الدنيا، والانتقال إلى الرفيق الأعلى.(٢) وهذا الخيار الثاني قد شمل في طيَّاته عدداً من الأمور:

١. أنه اختيار الله ﷻ لنبيِّه ﷺ.

وإذا كان الله ﷻ لا يختار لعباده إلا ما هو الأفضل، بل إن خيرته ﷻ خير من خيرة العباد لأنفسهم، قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران:١٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾، فكيف بأصفيائه من عباده حاملي رسالاته، ومبلغي شرائعه، فأولئك يكون لهم من الاصطفاء أكمله، فكيف إن كان المختار له هو أفضل المصطَفين الأخيار.

ولهذا اختار الله ﷻ له ﷺ الدار الآخرة الباقية على الفانية،(٣) فقال له: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضُّحى:٤]، وجاء في تفسيرها قوله ﷺ: " عُرِض عليَّ ما هو مفتوحٌ لأمتي بعدي، فسرَّني، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضُّحى:٥] أعطاه الله في الجنة ألف قصر من لؤلؤ ترابها المسك في كل قصر ما ينبغي له".(٤)

والعرض في هذا الحديث المفسَّرِ به الآيةَ الكريمةَ قد يُستأنس به للدلالة على العرض الوارد في التخيير، وإن ثبت تطابقهما كان صريح الدلالة على حمل الآية الكريمة على تخييره ﷺ قبل موته أو عنده، واختيار الله تعالى له ﷺ الآخرةَ الباقية على الدنيا الفانية.

٢. أنه اختيار لخير منزل، وأكمل ورفقة.

مما هو معلوم أنه لابد في الاختيار أن يكون المختار عالماً بحقيقة المخيَّر بينهما، حتى يختار الأفضل والأكمل، ومن هذا الباب كان اختيار النبي ﷺ لما اختاره مبنيَّاً على كمال علمه ﷺ بالمنزل وبالرفيق، بالمنزل المنتَقل منه الزائل البائد المنغَّص بالمكدِّرات أو المنتَقل إليه السرمدي الأبدي المنعَّم الآمن، وبالرفقة المنتَقل منها أو الرفقة المنتَقل إليها.

فالمنزل المنتَقل منه فذاك الأقل عند الله قدراً ومنزلة، بزخرفه ومتاعه القليل الزائل، وهو مكان النَّصَب والكبَد، وليس بينه وبين الخيار الآخر أي وجه من المقابلة، وإنما جيء

(١) انظر: تفسير الطبري (٥١٢/١٣).
(٢) انظر: الروح لابن القيم (١٠١).
(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٥٨٢/٢).
(٤) المعجم الأوسط (١٧٩/١) رقم (٥٧٢)، صححه الحاكم.

بلفظ المقابلة بين المنزلين في النصوص لبيان أنه لا وجه للمقارنة [1]،كما في مثل قوله تعالى:﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف:١٠٩]، وقوله تعالى:﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [النحل:٣٠]، وقوله تعالى:" ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان:٢٤].

مع العلم اليقيني بأن المنزلة التي أنزل الله فيها نبيَّه ﷺ في الدنيا هي أكمل المنازل وأعلاها، وأرفع الرتب وأسناها، فمنزلته ﷺ في الدنيا فوق كل المنازل، وقد بلغ فيها المنتهى في الرفعة صلوات الله وسلامه عليه.[2]

ويشهد له ما جاء في تفسير قوله تعالى: :﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضُّحى:٤]بأن المراد بها " ما لَكَ في مرجعك عند الله أعظمُ مما أعطاك من كرامة الدنيا".[3]

وهذه المعرفة لحقيقة هذه الدار قد أدركها ــ مع الفارق في قدر الإدراك كما هو معلوم ــ أتباع الأنبياء الكرام، كما في قوله تعالى:﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص:٧٩-٨٠].

أما المنزل المنتَقل إليه فهي الآخرة الأكمل من كل الوجوه، المنتفي عنها مجرد توهم النقص، فضلاً عن وقوعه، قال تعالى:﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤]

وهذا الكمال في الحياة الأخروية شامل لكل الخلق، وللكُمَّل من الخلق من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام من ذلك أكمله وأعلاه، فلا شك أن حياتهم أجلُّ وأعظم.

وأما الرُّفقتين في الدَّارين: فمسلَّم وبدهي القول بأنَّ الرفيق المنتَقل إليه أكرم وأجلُّ من الرفيق المنتَقل منه، وإن كان كل الرفقة المنتقل عنها من أهل الجنة؛ لانعقاد الإجماع بذلك كما هو معلوم، ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الحديد:١٠] وكثير منهم من أرباب الدرجات العلى، ولكن أول ما يقع به التفاوت ويحصل كون الأنبياء عليهم السلام هم أول تلك الرفقة الكرام.

(١) انظر: أضواء البيان (٣٢٦/٦).

(٢) انظر: المدخل لابن الحاج (٤٠/٢).

(٣) انظر: الشفا للقاضي عياض (٣٥/١).

ومعلوم أن ما بين الأنبياء من آصرة الإيمان وعراه الوثيقة أعظم مما بينهم وبين غيرهم من أهل الإيمان، والنصوص تشهد لذلك، مثل قوله ﷺ:" أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد".(١)

ولهذا فُسِّرَ قول عائشة رضي الله عنها:" فإذاً لا يختارَنا" بالنصب، على أنه اختار أهل السماء على أهل الأرض.(٢)

ويظهر بما سبق أنه لا وجه للمقاربة فضلاً عن المقارنة بين المنزلين، وأما رفقتا الدنيا والآخرة فإن الأخيرة هي الأكمل بداهة، وإن كانت رفقة الدنيا هم خير صحب لخير نبي ﷺ.

٣. أنَّ في هذا الاختيار عود الاتصال بالرفيق الأعلى.

فإن الله ﷻ وصل نبيَّه صلى الله عليه وسلم به بوحيه الكريم، ولم يقطعه عنه انقطاعاً متصلاً البتة ثلاثاً وعشرين سنة حتى أتمَّ الدين وأكمل الشِّرعة، وذلك حين نزل قوله تعالى:﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، ثم انقطع الوحي عن النبي ﷺ بالكلية، فكان في هذا الاختيار بالانتقال إلى الرفيق الأعلى ديمومة لما انقطع، واتصال لما توقَّف، ورجوع لمحبوب سالف العهد، وسابق الحال العظيم.(٣)

ومما يعضده ما جاء عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ أُغمى عليه ورأسه في حجرها، فجعلت تمسح وجهه وتدعو له بالشفاء، فلما أفاق قال:" لا، بل اسأل الله الرفيق الأعلى الأسعد، مع جبريل، وميكائيل، وإسرافيل عليهم السلام".(٤)

ولهذا لما فهم أبو بكر ﷺ ذلك من معنى كلام النبي ﷺ بكى كثيراً، لعدة أسباب منها: انقطاع الوحي.(٥)

٤. أنَّه اختيار يوافق خبر الله السابق بنفي أبدية الحياة الدنيا عن النبي ﷺ، وغيره من سائر البشر.

قال تعالى:﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء:٣٤-٣٥].وقال تعالى:﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزُّمَر:٣٠]

(١) صحيح البخاري: ك/ الأنبياء، باب: واذكر في الكتاب مريم (١٦٧/٤) رقم (٣٤٤٣).
(٢) انظر: عمدة القاري (١٤٥/٢٣).
(٣) انظر: التحرير والتنوير (٥٢/٢٩).
(٤) عمل اليوم والليلة للنسائي (٥٩٠) رقم (١٠٧٩)، صححه الألباني. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٨٥/٧).
(٥) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١٥٠/١٥).

وهاتان الآيتان الكريمتان هما اللتان ذكرهما أبو بكر ﷺ للصحابة مستدلاً بهما على وفاة النبي ﷺ.(١)

فتنكير لفظ (بشر) ومجيئها في سياق النفي في الآية الكريمة ظاهر في العموم، فيشمل الحكم ــ وهو نفي الخلد ــ كلَّ البشر بلا استثناء.(٢)

٥. أنه اختيار للمقام الأول والمنزل الأسبق.

فإنه المنزل الأول لأبينا آدم عليه السلام، فاختياره اختيار للأسبق منزلاً، فالمؤمن بروحه غريب في هذه الدار، مغترب فيها عن الدار الأولى، التي هي مقام رجوعه، وأوبه، وقد نوَّه الله ﷻ على ذلك فقال تعالى:﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران:١٤]، وقال تعالى:﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].(٣)

٦. أنه اختيار يوافق الدعاء السابق منه ﷺ بتمني الخير مطلقاً سواء كان في الحياة أو ضدها، وذلك في قوله ﷺ:" اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي".(٤) ويظهر هذا في:

٧. أنَّ اختياره ﷺ حقيقة ليس اختيار لوفاة، بل هو اختيار لحياة، ولكنها أكمل من الحياة الدنيا ألا وهي الحياة الآخرة،﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤]، فتحصَّل له اختيار خير حياة التي ظاهرها وفاة، واختار الوفاة التي مآلها خير حياة، فظهر بهذا أنه إنما اختار الخير مطلقاً.(٥)

٨. أنه اختيار لا تردد في القول به، ولا رجوع عنه بعد ذلك، حاشاه صلى الله عليه وسلم أن يكون منه شيء من ذلك، مما يدل على العزم في الاختيار والإصرار عليه،(٦) ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها:" قلتُ: إذاً لا يختارَنا".(٧) بنصب الفعل، ومعناه: أنه اختار الآخرة على الدنيا فتعيَّن ذلك، فإذاً لا يختارَنا بعدُ.(٨)

---

(١) انظر: صحيح البخاري: ك/ فضائل الصحابة، بابٌ (٦/٥) رقم (٣٦٦٧).

(٢) انظر: أضواء البيان (٢١٠/٤).

(٣) انظر: تفسير البيضاوي (٥٣/٦)، التحرير والتنوير (٣٤١/٣٠).

(٤) متفق عليه، صحيح البخاري: ك/ المرضى، باب: تمني المريض الموت (١٢١/٧) رقم (٥٦٧١)، صحيح مسلم: ك/ الذكر والدعاء، باب: تمني كراهة الموت لضر نزل به (١٠٧٦) رقم (٢٦٨٠).

(٥) انظر: فتح الباري لابن حجر (٢٢١/١٣).

(٦) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل للهاشمي (١٤٤/١).

(٧) تقدم تخريجه ص (٧).

(٨) انظر: عمدة القاري (١٠٢/٣٣).

٩. أنه اختيار قد سبقه إخبار الله لنبيه ﷺ بدنو وفاته، يشهد له قوله ﷺ لفاطمة رضي الله عنها:" ليس على أبيك كرب بعد اليوم"،[١] ولهذا منع صلوات الله وسلامه عليه عائشة رضي الله عنها من الدعاء له بالشفاء، ثم قال:" اللهم اغفر لي واجعلني في الرفيق الأعلى".[٢]

١٠. أنه اختيار انتقال إلى دار لا انتقال بعدها، والانتقال إلى دار كذلك، خير من بقاء غيرِ دائم. وهذا سبب تسمية الآخرة بذلك الاسم.[٣]

ولاشك أن في ثنايا هذا الاختيار العظيم من النبي الكريم ﷺ ما هو أعظم وأجل مما سبق ذكره مما قصر البحث عن دركه، أو الوقوف على دُرره.

وهذان الخياران السابقان هما اللذان أجمع عليهما جماعة من أهل العلم كما سبق بيانه مقدماً، ولكن بعض أهل العلم ذهبوا إلى أن هذا التخيير محتمل لغير ما سبق على أحد وجهين، هما:

الأول: أن المراد بالتخيير هو مشاهدة الثواب الذي أعدَّه الله لنبيه ﷺ في الجنة.

الثاني: أن المقصود بالتخيير أنه حاصل بين منازل الآخرة فقط، وليس بين الدنيا والآخرة؛ وأن الاختيار وقع على أعلى منازل الآخرة ورفقتها، وهي الرفيق الأعلى.[٤]

وهذان الاحتمالان يبعد القول برجحانهما؛ لمخالفتهما لصريح النصوص السابقة الدالة على أن التخيير وقع بين أمرين: بين الدنيا بالبقاء فيها، ونوال خيراتها والاستمتاع بزخرفها، وبين الآخرة: بالانتقال إليها والكون بين خير أهلها.

أما الوجه الأول فهو صرف لأدلة التخيير عن ظاهرها لتكون دالة على مسألة رؤية المقعد من الجنة الوارد في شأنها نصوص تبرهن اختلاف موضوعها عن مسألة التخيير، فالتخيير شيء ورؤية المقعد شيء غيره، فالحدثان مختلفان شكلاً ومضموناً، وكل واحد منهما دال على ما يخصه من معنى، ومتضمن لما احتواه من حكم، ولا جامع بينهما سوى سبقهما للأجل المحتوم، وليس ذلك بكاف لتفسيرهما بمعنى واحد، لاسيِّما وقد جاء في النصوص ما يبين دلالة كل حدث على المقصود منه، بما يمنع تفسير كل واحد بالآخر.

(١) صحيح البخاري: ك/ المغازي، باب: مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته (١٥/٦) رقم (٤٤٦٢).
(٢) صحيح مسلم: ك/ السلام، باب: استحباب رقية المريض (٩٠١) رقم (٢١٩١).
(٣) انظر: أضواء البيان (٣٢٠/٣).
(٤) انظر: المنتقى للباجي (٥١٣/٢).

ومن أصرح هذه الأدلة التي يدلُّ نفس سياقها على اختلاف الأمرين، بل وفيها ما يدل تعيين زمان رؤية المقعد بالنسبة للتخيير، وأنها سابقة للتخيير، حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه:" إنه لم يُقْبَضْ نبيٌّ قط حتى يَرَى مقعده من الجنَّة، **ثم يُخيَّر**".(١)

ولأن أصل رؤية المقعد غير مختصة بالأنبياء عليهم السلام من كل وجه، بل هي واقعة لكل الخلق من البشر، وإن كان وقوعها للأنبياء مختلف من وجوه، منها: أن رؤية المقعد للأنبياء عليهم السلام سابقة للمات، بخلاف غيرهم فهي واقعة بعد ذلك كما أثبتته النصوص، كقوله ﷺ:" إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة".(٢)

وأما التخيير فهو من خصائص الأنبياء عليهم السلام فقط غير حاصل إلا لهم، لصريح قوله ﷺ:" مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرَضُ إِلا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ"، ولا يشاركهم في نفس التخيير أحد، لا في أصله، ولا وصفه، فلا يخيَّر أحد في البقاء أو الموت وإنما تنتزع منه الروح انتزاعاً،(٣) فلا يصح والحال كذلك أن يفسَّر هذا بهذا.

كما أن هذين الاحتمالين معارضان للقول الأسبق الذي جرى الذهاب إليه من جمع غفير من أهل العلم، وكادوا أن يكونوا متفقين على حصر الخيارين فيما ذكر أولاً.(٤)

وسيأتي لاحقاً بيان شيء عن مسألة رؤية المقعد ووجه سبقها للتخيير في المطلب السادس بمشيئة الله تعالى.

المطلب الثالث: عدد مرات التخيير.

بالرجوع للنصوص المنقولة عن التخيير والتي بالرغم من تعدد رواياتها واختلاف طرق أسانيدها فإن مدارها على اثنين من الصحابة أبي سعيد وعائشة رضي الله عنهم، فإن مضمونها صريح في تكرار وقائع موضوعها، وأنه لم يكن مرة واحدة، بل جاء على ثلاث مرات.

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري: ك/ المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته (١٠/٦) رقم (٤٤٣٧)، صحيح مسلم: ك/ فضائل الصحابة ﷺ، باب: من فضائل عائشة رضي الله عنها (٩٩١) رقم (٢٤٤٤).

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري: ك/ الجنائز، باب الميت يعرض عليه بالغداة والعشي (٩٩/٢) رقم (١٣٧٩)، صحيح مسلم: ك/ الجنة، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (١١٤٩) رقم (٢٨٦٦).

(٣) انظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (١٢١/١).

(٤) انظر: التمهيد لابن عبد البر (٢٦٩/٢٤).

ولما كان محور التخيير ومداره متعلقاً بالموت ومفارقة الحياة الدنيا أو البقاء الأبدي فيها ناسب أن يُجرى تصنيف حصر عدد مرات التخيير الكريم بناء على هذا المتعلَّق الأهم، وعليه يمكن أن تصنف تلك المرار حسب ذلك إلى الأقسام التالية:

التوقيت الأول: تخيير مطلق دون تقييد بزمان.

ويدلُّ لهذا قول عائشة رضي الله عنها:" كان رسول الله ﷺ يقول **وهو صحيحٌ** ..... وعرفتُ الحديث الذي كان يحدِّثنا به **وهو صحيح**" [1] فهذه الروايات صريحة في أنه وقع وهو ﷺ في كامل صحته، وتمام عافيته قبل أن يداهم المرضُ النبي ﷺ، فالواو للحال في هذا السياق.[2]

التوقيت الثاني: أنه كان في مرض الوفاة.

ويشهد لهذا عموم الروايات الدالة على وقوعه حال المرض، كرواية قوله ﷺ:" مَا مِنْ نَبيٍّ يَمْرَضُ إِلا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ".[3]

ويعضُّدها ويقرِّب تعيين زمانها ما ورد عن بعض أهل العلم في تحديد تلك الفترة بقرب من تمام الأجل، ونهايته بليال معدودة، قُدِّرت: بخمس ليال، وقيل: بثلاث.[4]

التوقيت الثالث: أنه وقع عند الوفاة.

ومما يدلُّ لهذا قول عائشة رضي الله عنها:" فلمَّا اشتكى، وحضره القبضُ".[5] وقولها رضي الله عنها:"فلمَّا نُزِلَ به".[6] والمراد بالقبض: الموت، والمراد بـ"نُزِل به": حضور الموت.[7]

وعند النظر في هذه التوقيتات والبحث عن وجه الحكمة من تكرار التخيير فيها يمكن أن تُلاحظ الأمور التالية:

أولاً: من حيث زمان المتعلق الأبرز بشأن التخيير وهو وقت الموت ومفارقة الدنيا.

فالتوقيت الأول يخالف ما تقارب فيه التوقيتان الثاني والثالث من حيث زمان المتعلَّق، فالأخيران قريبان من متعلَّق ومحور التخيير، فالمرض مظنة الهلكة، والأول أبعد منهما، ويتضمن التخيير فيه أموراً:

---

(١) تقدم تخريجه ص (٧).

(٢) انظر: عمدة القاري (٣٠١/٣٣)، مرقاة المفاتيح (١١٠/١١).

(٣) تقدم تخريجه ص (٣).

(٤) انظر: فتح الباري (١٢/٧).

(٥) تقدم تخريجه ص (٨).

(٦) تقدم تخريجه ص (٧).

(٧) انظر: الفجر الساطع على الصحيح الجامع (١١٤/٤)، عمدة القاري (١٠٢/٣٣).

١. أن تحديد ذلك البُعد في التوقيت الأول شارك بعض حيثيات شأن التخيير في غُفْل تعيينه وتحديده.

فمطلق قول عائشة رضي الله عنها:" كان رسول الله ﷺ يقول **وهو صحيحٌ**"، لا يفيد التعيين لمدة معينة، بل يجعل الباب مفتوحاً لاختيار أي زمان يصدق فيه وصف حال عافية النبي ﷺ بالصحة، وكمالها.

٢. أن الاختيار في التوقيت الأول ذكره النبي ﷺ لأصحابه، وأفادهم بما اختار، وعيَّنه لهم.

أما الاختيار في التوقيتين الثاني والثالث فإنه خلا من التصريح المقالي منه ﷺ، وإنما وقع بهيئة اختيار فعلية إذ نُقل بوصف حاله، مصحوباً بسابق ما فُهم من مقاله، لقول عائشة رضي الله عنها:" فظننتُ أنه خُيِّر يومئذ"، وقولها رضي الله عنها:" قلت: إذاً لا يختارنا، وعَرَفتُ أنه الحديث الذي كان يُحدِّثنا به وهو صحيحٌ".

فحصل بذلك من التأكيد لما اختير في التوقيت الأول، وتمام العلم بتعيين المختار أكمل من مجرد منقول الخبر في التوقيت الأول.

٣. أن تكرار التخيير مع الاختلاف في التوقيت له أثره في نوع الاختيار، وهو أكمل مطلقاً من وقوعه بتكرار في زمان واحد، خاصة إن كان واقعاً في التوقيت الثاني والثالث وهما في آخر الحياة، ومن باب أولى كان أكملاً من وقوعه دون تكرار، فناسب أن يقع تكراره على هذا الوجه.

٤. أن فيه زيادة إكرام للنبي ﷺ بأن يكون في الأمر اتساعاً ومهلة أكثر للاختيار.

ويتضح هذا بالآتي:

٥. أن حال الصحة هو وقت المهلة للنظر والتروِّي، والسعة للتأمل والتفكُّر، فالاختيار حينها مختلف عن الاختيار حال الوفاة من حيث المطلق والعموم.

٦. وفي شهود عائشة رضي الله عنها للتخيير الأخير لنقل خبره، وحقيقة تأويله، وحصوله على ذلك الوجه، وما احتواه من شواهد الإكرام، ومنارات التشريف، ما به يزداد العلم بالخبر الأول، ويكمل التصوُّر بالنقل الأمثل.

وبالرغم من اختلاف مواقيت التخيير، وما احتفَّ بها إلا أن الاختيار لم يختلف، فدل على عدم تأثير اختلاف الزمان على تحديد الخيار، وهو ظاهر في التفضيل للأبقى.

ثانياً: من حيث تعيين المخيَّر.

نجد أنَّ تعيين المخيَّر في كل المواقيت الثلاث لم يأت مرفوعاً في جميعها، وإنما صُـرِّح به موقوفاً، مما يدلُّ على أنَّ ملازمة الإبهام للمخيَّر في الأخبار المرفوعة لم تنفـك عنـه حتى حصل الأمر، وأقوى ما كان فيه التصريح بالمخيَّر موقوفاً هـو التوقيـت الأخيـر، الذي فسَّرت فيه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بنقلها للحال نقلاً أفصح عن المـبهم، وأبان عنه، وذلك لأن التوقيت الأخير حصل فيـه تأويـل الخبـر المرفـوع بـالوقوع والظهور، على معنى البيان للحقيقة والماهية.

المطلب الرابع: هيئة التخيير، والملَك الذي جاء بالتخيير.

كما أبهم المخيَّر في الروايات المتعلقة بالتخيير قبل الممات، أبهم شأن البيان والإيـضاح لحقيقة ذلك التخيير وكنهه وكيفيته، بل كان غُفلاً مطلقاً، فلازمهـا الإبهـام فـي أوقاتـه الثلاث.

ولم يستفصل الصحابة عن الهيئة والكيفية، وبادروا بالاستفصال عمَّـا رأوا أنـه أولـى بالاستعلام عنه والاستخبار، فهو الجزء الأكثر أهمية في نظرهم، وهو (مَنْ هو المقصود بذلك الخبر).وقد تقدم بيانه في المسألة السابقة.ولعلَّ الدافع لهذا الموقف سـابق المعهـود من طرق إتيان الوحي، التي أدركوا بعض هيئاتها، فيما عرَّفهم بها النبي ﷺ، مثـل مـا جاء عن الحارث بن هشام رضي الله عنه حين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله: كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ:" أحيانا يـأتيني مثـل صلـصلة الجرس، وهو أشدُّه عليَّ، فيفصم عني وقد وعيتُ عنه ما قال، وأحياناً يتمثَّل لـي الملـك رجلاً فيكلِّمني فأعي ما يقول".(١)

فلا يبعد أن تلحق هيئة التخيير بتلك الهيئات المعهودِ علم أخبارهـا والمجهـول حقـائق كيفياتها، فيغني العلم بالمألوف عن إعادة السؤال عنه.

ويختص هذا المعنى المقصود في بيان هيئته بالذي وقع من التخيير فـي التوقيـت الأول والثاني، لعدم شهود الصحابة للموقفين، فقد وقع علمهم به بعد إخبار النبي ﷺ، فكان عدم الشهود رافداً لعدم استفصالهم؛ وإحالته إلى نظائره، فلا وجه يستدعي التفريق.

وهذا هو الشأن والحال في المنقول عن الصحابة خلال مسيرة حياة النبي ﷺ، فيـستغنون بالاستفصال عن المعنيين به، دون ما لا يكون كذلك، طالما أن الخبر قد جاءهم منـه ﷺ،

(١) صحيح البخاري: ك/ بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦/١) رقم (٢).

فهو الذي ينبغي أن يتأوَّل بالفعل، أو التصديق، وشأن التخيير هو من الباب الأخير،والأدلة على ذلك في النصوص لا تكاد تنحصر.(١)

وأما التوقيت الثالث الذي وقع فيه التخيير بشهود عائشة رضي الله عنها للواقعة الكريمة ففيها البيان أنه لم يحدث فيها صوت مسموع من جهة الملك للنبي سواء كان من وراء حجاب أو دونه، وهذا الأخير غير واقع بلا شك؛ لأن عائشة رضي الله عنها كانت شاهدة للحال، وإنما كان الصوت في الجواب من النبي، فعُلم بهذا أنه خرج التخيير في هيئته عن صورة الكلام المعهود المتبادل بين النبي والملك كما هو الحال في أمثال ذلك من صور الوحي.

وما سوى ذلك من صور الوحي فإن تقحُّم القول بالجزم بإحداها مفتقر لما يثبت ذلك أو يشهد له، أو يستأنس به، وكله غير متحقق، ويبقى الأمر من مجمل أمور الغيب التي أُرْتِجَ معرفة كيفيتها، وأغلق إدراك كنهها، وحسبنا الإيمان بما آمن به الصحابة الكرام ﷺ.

ومن تمام ما يتعلَّق بهيئة التخيير الإشارة إلى ما ورد في بعض الدواوين الحديثية وكتب السير والتواريخ من قصة استئذان ملك الموت للنبي ﷺ في حديث طويل، وفيه:" ادخل رحمك الله يا ملك الموت، فدخل ملك الموت على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: يا ملك الموت جئتني زائراً أم قابضاً ؟ قال: جئتك زائراً، وقابضاً، وأمرني الله ﷻ أن لا أدخل عليك إلا بإذنك، ولا أقبض روحك إلا بإذنك، فإن أذنت وإلا رجعت إلى ربي ﷻ".(٢) فالجواب عن ذلك من وجهين:

أولاً: من جهة الرواية.

أن الحديث لا يصح إطلاقاً، بل هو من الموضوعات، كما حكم عليه جمع من أهل العلم.(٣)

ثانياً: من جهة الدراية.

١. أنه مخالف لما ثبت به التخيير الوارد في النصوص الأوثق والأصرح، ولا يمكن أن يكون ثمة تعارض في الشريعة عمومها، فكيف بشأنٍ يتعلق بحياة النبي ﷺ.

(١) انظر: إعلام الموقعين لابن القيم (٤٩/١).
(٢) المعجم الكبير (٥٣/٣) رقم (٢٦٦٧).
(٣) في رواته مناكير. انظر: الموضوعات (٣٠١)، مجمع الزوائد (٦١١/٨) رقم (١٤٢٦١).

٢. أن في سياق الحديث من الأمور المنكرة الغريبة ما يتنافى مع صيانة المقام النبوي الكريم، وحفظ منزلة الصحبة المشرفة، ولهذا قال ابن الجوزي ــ رحمه الله ــ: "كافأ الله من وضعه، وقبَّح من يشين الشريعة بمثل هذا التخليط البارد والكلام الذى لا يليق بالرسول ﷺ ولا بالصحابة".(١)

٣. أن الإكرام أظهر في التخيير منه في الاستئذان، وذلك من حيث الأمور التالية:

أ- لأن رسالة الملك التي أمر بإبلاغها للنبي ﷺ عند التخيير في الموت تحمل أكثر من خيار، بخلاف الاستئذان فهو يحمل طرح خيار واحد، متضمن لمفتَرض واحد لابُدَّ منه ولا مناص إذ لا يتضمن إلا خيار الوفاة، وما كان كذلك فهو أقل قدراً مما تعددت فيه الخيارات.

ب- أن التخيير في نهايته وعاقبته ائتمار بأمر النبي ﷺ باختياره للخيار الذي يريد، بخلاف الاستئذان فإنه طاعة النبي ﷺ بالإذن للملك أن يفعل ما يريد، وهذا واضح بين.(٢)

مسألة: الملك الذي جاء بالتخيير.

تعيين الملك الذي جاء بالتخيير للنبي ﷺ مشمول بالإبهام الذي احتَفَّ بشأن التخيير، حيث شمل جملاً من مباحثه وقضاياه، إذ تعذَّر في صحيح الأخبار أو مشهورها تعيين السفير المبلِّغ لهذا الخبر العظيم، إلا فيما أشير إلى رواية واردة عن أبي الأسود فيما نقله عن عروة بن الزبير في سيره، بأن جبريل عليه السلام هو من جاء بخبر التخيير للنبي ﷺ.(٣)

وعموم إسناد مهمة الوحي إلى جبريل عليه السلام قد يشمل الإبلاغ بالتخيير، إلا أن الجزم بذلك مفتقد للنص الصريح الصحيح.

وشهود ملك الموت في التوقيت الثالث من مشاهد التخيير لا يبعد وقوعه، إذ الانتقال من مقام التخيير للنبي ﷺ إلى إنفاذ الاختيار لم يستغرق وقتاً، فليس بين الأمرين إلا مقداراً يسيراً، تقديره ما ذكرته عائشة رضي الله عنها بقولها :" ساعة ثم أفاق"، والساعة مثلٌ يضرب لقصر المدة.(٤)

(١) انظر: الموضوعات (٣٠١)،

(٢) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين (١١٨١/١).

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر (١٣٨/٨).

(٤) انظر: تفسير روح البيان (٤٦/٥).

لكنَّ الجزم بهذا كذلك غير مسلَّم به؛ لأن وقائع هذه الشؤون ليس قياسها على ما هو المعهود في أمور عامة الخلق، فأمور الغيوب لا يمكن للعقل أن يدرك كنهها فيقيسَها بما عهد قدر وقعه ووقته.

المطلب الخامس: بعض الحكم المتضمنة للتخيير.

التخيير أحد الخصائص الجليلة التي اختُصَّ بها النبي ﷺ ومن سبقه من الأنبياء عليهم السلام، لقول النبي ﷺ:" مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرَضُ إِلا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ" [1]، والخصائص قائمة على التشريف والإكرام، والانفراد وعدم المشاركة، وهي متضمنة لحكم جليلة ومعاني عظيمة، قد تكون ظاهرة تدرك بأقرب وجه، وقد تكون بعيدة تحتاج إلى استقصاء نظر، وتأمل دقيق.

فإن أُورد على هذا المعنى أن التخيير قد سبق بعرض المقعد، لما ثبت بالنصِّ المتقدم:" إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة" [2] فلا وجه للتخيير والحال كذلك؛ لأن الاختيار سيكون معلوماً بين ذلك المقام الذي كُشف، والمُقام في الدنيا.

فيمكن أن يُجاب على هذا الإيراد إجمالاً بأن الله ﷻ لم يُخْلِ شرعه العظيم من حكم بليغة، يُعْجَز عن حصرها وتعدادها، وتقف العقول حائرة في تدبر مضامينها، وتعقُّل تفاصيلها، ويمتنع أن يكون ختام حياة خير الرسل ﷺ بموقف عريٍّ عن الحكمة، خليٍّ عن الفائدة.

وفيما يلي محاولة لاستخراج بعض الحكم من جُمَل المذكور في التخيير بكل نواحيه، مرتبة على النحو التالي:

١. أن تلك الرؤية للجنة من النبي ﷺ ليست الأولى كما هو معلوم، فقد سبق له ﷺ رؤيتها في المعراج وغير ذلك، ولكن احتفاف الموت بهذه الرؤية له وقعه وأثره، فناسب تكراره هنا ليذكَّر بذلك المرئي في مقام المعجزات، ودرجات البيِّنات، وما صاحب تلك الأحوال والمواقف العظام. ومن هنا يتأكد التالي، وهو:

٢. أن في انكشاف الحُجب بعرض المقعد قبل التخيير تشويق عظيم لتلك الدار، وحث النفس وتهييجها على اختيار الانتقال إليها؛ لعظيم ما شاهدت، وجليل ما رأت، ودلالة من وجه غير خفي على الخيار الأحرى بالذهاب إليه، فيتمحَّض الاختيار، ويصفو مشرب الاصطفاء.[3]

---

(١) تقدم تخريجه ص (٣).

(٢) تقدم تخريجه ص (٧).

(٣) انظر: المنتقى للباجي (٥١٣/٢).

٣. أن الله ﷻ جعل التخيير خاصاً به ﷺ والأنبياء قبله، ولم يجعله لغيرهم من سائر الخلق؛ لعلم الله السابق بالاختيار الأنسب من الأنبياء الموافق لكمال إيمانهم ويقينهم بالله ﷻ، ولم يكن التخيير لغيرهم من الخلق؛ للفارق المعلوم في المدركات واليقينيات.(١)

٤. قد يُرى أن في اختيار الانتقال للدار الآخرة تغليب لجانب هضم النفس باحتمالها مضاعفة شدة السَّكَرات، وآلام النزع، ثم الانتقال عن هذه الدار، على تفضيل البقاء في الدنيا والتنعُّم بزخرفها، مع علمها بمنزلها عند الله ﷻ بذلك المقام الكريم الذي كُشف للنبي ﷺ النظر إليه.(٢)

٥. أن الله ﷻ لم يجعل نهاية الحياة الدنيوية لنبيه صلى الله عليه وسلم على وفق ما لغيره من سائر البشر، من حيث جعل الختام المحتَّم قائم على قهر الأنفس البشرية بنهايتها المعهودة، وسلب روحها المحفوظة، الراغبة في الديمومة، العازفة عن الرحول، بل أن يكون في نهاية حياة الرسل من الإكرام ما يناسب منزلتهم وفضلهم، بأن يجري عليهم القدر النافذ جرياناً مستلطفاً فيه أهلُه، مخيراً فيه صحبُه، فتكون نهاية آجالهم بما يوافق اختيارهم وآمالهم.(٣)ويزيد هذا وضوحاً الأمر التالي.

٦. أن التخيير فيه تهيئة لقدوم النبي ﷺ على ربه ليكون قدوم راغب، ووفادة محب للقاء، ومشتاق للالتقاء، يتحقق فيه الوصف العظيم في قوله ﷺ:" من أحبَّ لقاء الله أحب الله لقاءه".(٤) (٥)، ولهذا كان جواب موسى عليه السلام حينما ذكر له الملك أن آخر الأمر هو الموت، فطلب عليه السلام تحقيقه شوقاً إلى ربه جل شأنه.(٦)

٧. أن التشريف لم يزل يرافق حياة النبي ﷺ قبل ميلاده الشريف حيث الإرهاصات المبشِّرة به، وحين الميلاد العلامات تؤذن بقدومه الميمون، حتى آخر ما يكون من شأن النبي ﷺ، في ذلك الموقف المهيب، يشرفون بهذا التخيير، ليكون في وجودهم وفقدهم تشريف متتابع.

---

(١) انظر: فيض القدير (٥٠١/٥).

(٢) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢٨٧/٤).

(٣) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢٨٧/٤).

(٤) متفق عليه، صحيح البخاري: ك/ الرقاق، باب: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (١٠٦/٨) رقم (٦٥٠٧)، صحيح مسلم: ك/ الذكر والدعاء، باب: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه (١٠٧٧) رقم (٢٦٨٣).

(٥) انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير (٧١٣/٢).

(٦) انظر: عمدة القاري (٢١٥/٨).

المبحث الثالث: جواب النبي ﷺ لدى تخييره عند الموت. وفيه مطالب:

في التوقيت الثالث لما عُرض على النبي ﷺ أمر التخيير وهو حينها يقاسي السكرات، ويعاني من آلامها الموجعات المضاعفات، أجاب بعبارات أفصح بها عما يريده ويحبه، ويختاره ويُفضِّله، إذ المقام مقام تفضيل لمحل على محل، ولمنزل دون آخر، ولرُفقة على غيرها، وكانت تلكم الإجابات الصريحات ختام حياته العامرة بالقُرَب المقصودِ بها القُرْبُ من الله ﷻ، فاشتملت على زبدة ذلك وخلاصته، بأوجز عبارة وأقصرها، وأحبك تركيب وأدلِّه على المعنى المراد منه.(١)

ولهذا أدركت عائشة رضي الله عنها الجواب مباشرة وعرفت المقصود دونما التباس، ولا عَسُر عليها فهم ذلك فأيقنت تمام اليقين الذي لا يختلجه الشك أو يداخله الريب، وأقسمت على ذلك مؤكدة ما تيقَّنت به، وعبَّرت بصريح اللفظ قائلة رضي الله عنها:" إذاً لا يختارنا".(٢)، وفي لفظ ــ نُقِلَ بَلاغَاً ــ:" فعرفتُ أنه ذاهب".(٣)

قال الباجي ــ رحمه الله ــ:" عَلِمَتْ أن ذلك إنما كان جواب التخيير الذي خُيِّر، فكان ذلك انقضاء عمره".(٤) وتنوَّعت العبارات المنقولة في هذا الجواب الجليل بألفاظ متعددة، يكون الكلام على شرحها ودلالاتها بعد حصرها في المطلب التالي.

المطلب الأول: الألفاظ المنقولة في جواب التخيير.

اختار النبي ﷺ مفارقة الدنيا، والانتقال عنها إلى **الرفيق الأعلى**، والصحب الأسنى، وجاء ذكر الاختيار بمعناه في قوله ﷺ:" إنَّ عبداً خَيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده"،(٥)، وأما التصريح باللفظ الذي وقع عند الوفاة فهو ما نقلته عائشة رضي الله عنها، ومفاد هذه العبارة الكريمة ورد على وجوه متعددة، فيما يلي ذكرها:

١. قوله ﷺ:" اللهمَّ الرفيقَ الأعلى".(٦)
٢. قوله ﷺ:" اللهمَّ في الرفيق الأعلى".(٧)
٣. قوله ﷺ" بل الرفيقَ الأعلى". (٨)

---

(١) انظر: روح المعاني للألوسي (١٦٠/٣).
(٢) تقدم تخريجه ص (٧).
(٣) الموطأ: ك/ الجنائز، باب: جامع الجنائز (٢٣٧/١) رقم (٦٤٠).
(٤) المنتقى شرح الموطأ للباجي (٥١٣/٢).
(٥) تقدم تخريجه ص (٧).
(٦) تقدم تخريجه ص (٧).وتقدير النصب في كلمة الرفيق: إما على العناية أو بتقدير: أختارُ، أو أريدُ. انظر: عمدة القاري (٣٧٤/٢٦)،(١٠٢/٣٣).
(٧) تقدم تخريجه ص (٧).
(٨) مسند أحمد (٣٦٧/٤٣) رقم (٢٦٣٤٧).خرجه الإمام بإسنادين، حسن أحدهما محققو المسند.

٤. قوله ﷺ:" اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق".[١]

٥. قوله ﷺ:" مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً".[٢]

٦. قوله :ﷺ" بل أسأل الله الرفيق الأعلى الأسعد مع جبريل وميكائيل وإسرافيل".[٣]

يظهر بمجموع ما سبق أن الإجابة الكريمة من النبي ﷺ تواردت في أغلبها على لفظ واحد، وهو الرفيق الأعلى على اختلاف في السياق، مصرَّحاً به، أو بمعناه ومقصوده، مسبوقاً بلفظ الدعاء أو مذيَّلاً به، وكل ذلك سيفصَّل في المطلب التالي.

المطلب الثاني: معاني الألفاظ المنقولة في جواب التخيير.

تعددت مناحي أهل العلم في بيان معنى المراد بهذه العبارة التي كانت مدار جواب التخيير (الرفيق الأعلى) على الأقوال التالية:

الأول: المراد بالرفيق الأعلى: هو الله ﷻ.

على أن لفظ الرفيق يطلق على الجمع والواحد وأريد به هنا الواحد جل جلاله،[٤] وأنَّ اسم الرفيق من أسماء الله تعالى، فكأنه طلب مرافقة الله ﷻ.[٥]

الثاني: المراد بالرفيق الأعلى النبيين الكرام عليهم السلام. **وهو قول الجمهور والأكثر.**[٦]

الثالث: المراد بالرفيق الأعلى: الجنة، وقيل: أعلاها.[٧]

الرابع: المراد بالرفيق: المرتفق، أي: مرتفق الجنة.[٨]

الخامس: المراد بالرفيق السماء، والمقصود بالأعلى منها الجنة. وهو قول الداودي، وضعَّفه الباجي.[٩]

السادس: أنَّ الصواب: الرقيع، (بالقاف) وهو من أسماء السماء، وأنه وقع خطأ من الراوي.[١٠]

---

(١) تقدم تخريجه ص (٨).

(٢) تقدم تخريجه ص (٨).

(٣) سنن النسائي الكبرى (٣٩٠/٦) رقم (٧٠٦٧).صححه ابن حبان (٥٥٦/١٤) رقم (٦٥٩١).

(٤) انظر: الديباج على صحيح مسلم (٤٠٧/٥).

(٥) انظر: شرح السنة للبغوي (٤٦/١٤)، تفسير غريب ما في الصحيحين للحميدي (٢٤٩).

(٦) انظر: الديباج على صحيح مسلم (٤٠٧/٥)، تفسير ابن كثير (٣٥٣/٢)، فتح الباري لابن حجر (١٣٨/٨).

(٧) انظر: التمهيد لابن عبد البر (٢٥٥/٢٢)، معارج القبول (١٠٨٩/٣).

(٨) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢٠٨/١٥)، المنتقى شرح الموطأ (٥١٣/٢).

(٩) انظر: المنتقى شرح الموطأ (٥١٣/٢).

(١٠) انظر: فتح الباري لابن حجر (١٣٧/٨).

السابع: المراد بالرفيق الأعلى حظيرة القدس.(١)

إذا رددنا هذه المعاني إلى قائليها لنستبين المراد من قوله:" اللهمَّ الرفيق الأعلى" يتضح جليًّا بما سبق أن أكمل العبارات للدلالة على مراد النبي صلى الله عليه وسلم هو ما أفصح بذكره في اختياره قارئاً الآية الكريمة من سورة النساء؛ ليكون بذلك شافي البيان والإيضاح، وهو الذي عليه جمهور أهل العلم وعامتهم، فلا حاجة بعد ذلك لإبعاد النجعة بتفسير المراد من الجواب الكريم بمستغرب الألفاظ أو بعيد المعاني.(٢)

وتفسير الرفيق الأعلى بالجنة أو أعلاها تفسير بمطلق المكان دون تعيين ساكنيه، وليس ذلك هو المقصود المطلوب في الجواب، ولا شك أن هذه الرفقة الجليلة هي في أعلى عليين؛ لأنهم صلوات الله وسلامه عليهم أكرم الخلائق أجمعين، وأكرمهم صلوات الله وسلامه عليه أعلاهم منزلة في عليين، إلا أنه ﷺ لم يرد المكان وإنما أراد المرافقة، والكون في أعلى مقاعد الرفقاء، فالمباينة أو القصور عن المقصود النبوي من اللفظ بتفسيره بالجنة أو أعلاها يجعل هذا التفسير غير واقع موقعه.

ووردت لفظة الرفيق دون إضافة الأعلى، فحُملت هذه الرواية المطلقة على المقيَّدة بالأعلى، وأُوِّلت على أن يكون المقصود بالأعلى الوصف اللازم الخالي من المعنى المخالف، ما يعني أنه لا رفيق إلا الأعلى.(٣)

أما الزعم بأن الرفيق تغيير من الراوي، وأن الأصح الرقيع بالقاف، فالروايات المصرَّح فيها ببيان معنى الرفيق تدل على تخطئة هذا القول.(٤)

والقول بأنَّ المقصود بالرفيق حال الإطلاق: الأعلى وغيره، لا يتَّجه بله أن يتَّسق مع النصوص المصرَّح فيها بطلب مرافقة المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ولما كان هذا الطلب منه ﷺ بالمرافقة للأرواح المجانسة له، ذات الأعمال المماثلة، وتلك أعلى المنازل وأرفع المراتب، منزلة أرواح أفضل الخلق، وأكرمهم على الله ﷻ وهم الأنبياء والرسل الكرام عليهم السلام، تحقق الوعد منه ﷻ فأصبح جواب الطلب بأن جعلت روحه ﷺ " في أرفع مكان في الرفيق الأعلى "،(٥) تحقيقاً للآية الكريمة في قوله تعالى:﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ

(١) انظر: حاشية السندي على صحيح البخاري (٢/٣).

(٢) انظر: المنتقى للباجي (٥١٣/٢)، التمهيد لابن عبد البر (٢٦٩/٢٤)، فتح الباري لابن حجر (١٣٧/٨).

(٣) انظر: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد (٥٠/١).

(٤) انظر: فتح الباري لابن حجر (١٣٧/٨).

(٥) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (٤١/٣).

أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾، وبَلَغَ ﷺ مقعده الذي رآه قبل مماته وشُوِّقَ إليه، وخُيِّر بينه وبين البقاء في الدنيا.(١) وهذه العبارات المنقولة المفيدة طلب المرافقة في أعلى الجنان تدلُّ على ما استقرَّ عليه جماعة من السلف والخلف بأن أرواح المؤمنين في أعلى عليين.(٢)

المطلب الثالث: دلالات الألفاظ المنقولة في جواب التخيير.

عند تأمل الألفاظ السابقة من الجواب النبوي الكريم يمكن أن يُخلَص إلى سرد ما تضمَّنته من دلالات على النحو التالي:

١. أن الجواب جاء يحكي اتفاقاً في الاختيار، وتعدد الألفاظ الواردة فيه ليس إلا تعدد عبارة لمعنى متَّحد.

٢. أن تلاوة النبي ﷺ للآية الكريمة تفسيراً بها للفظ الرفيق الأعلى صريح أيما صراحة في أن تحقيق جواب التخيير المرجو بمرافقة الأنبياء الكرام في الجنة إنما يحصل بإنعام وفضل من الله تعالى وحده، فالمنَّة له وحده ﷻ.قال تعالى:﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾[النساء: ٦٩]، وهذا يدل على:

٣. كمال تأدُّبه ﷺ مع الله ﷻ في صياغة اختياره ﷺ، حين أخلى الجواب من التذكير بكريم الموعود من محمود المقام، أو الإدلاء بمنزلته العليَّة ومكانته الرفيعة عند ربه ﷻ، فلم يشر إلى نحو قوله تعالى:﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾﴾، ولا قال ﷺ:" أنا سيد ولد آدم يوم القيامة".(٣) واختار ﷺ ما به تظهر منة الله سبحانه وفضله وإكرامه. ولذا:

٤. سبَّق ﷺ جواب التخيير بطلب حصول المغفرة والرحمة، اللذين يشترطان لدخول الجنة، بالرغم من قطعية دخوله ﷺ الجنة، ليدلل على الأمر كله لله وحده، وهذا يوافق ما ثبت عنه ﷺ بقوله:" لن يُدخل أحداً عملُه الجنةَ، قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: لا، ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة".(٤)

ويشهد لهذا المعنى صنيع الإمام البخاري ــ رحمه الله ــ بذكره لهذا الحديث السابق قبل حديث:" اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق".(٥)

---

(١) انظر: مرقاة المفاتيح (١١٠/١١).

(٢) انظر: أهوال القبور لابن رجب (١٦٠)، الروح لابن القيم (١٠٧)، لوامع الأنوار البهية للسفاريني (٥٣/٢).

(٣) صحيح مسلم: ك/الفضائل، باب: تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق (٩٣٥) رقم (٢٢٧٨).

(٤) متفق عليه، صحيح البخاري، ك/ المرضى، باب: تمني المريض الموت (١٢١/٧) رقم (٥٦٧٣)، صحيح مسلم: ك/الجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (١١٣٢) رقم (٢٨١٦).

(٥) تقدم تخريجه ص (٨).

٥. اختيار النبي ﷺ التعبير بالرفيق دون المنزل؛ لأنه من المعلوم المتقرر الذي قررته النصوص المتكاثرة في الكتاب والسنة أن منزلته ﷺ أعلى وأرفع المنازل؛ فله المقام المحمود، والمنزل الأعلى، ولا أحد فوق منزلته ﷺ؛ لأنه أفضل الرسل والخلق أجمعين صلوات الله وسلامه عليه، وإنما أراد المرافقة لذلكم الجمع الكريم.(١)

٦. أن الإضراب باستخدام حرف (بل) المصدَّر به الاختيار في أحد الروايات هو إضراب إبطالي،(٢) يتضمن التدليل على إهمال الخيار الأول وإغفاله، واعتباره خياراً غير ملتَفَت إليه، ولا مأبوهٍ به، وأنَّ الخيار الثاني هو الأحرى بالاختيار والتركيز عليه. ولهذا يضاف إليه:

٧. أن إظهار الاهتمام بهذا الخيار دون الخيار الآخر المقابل له ازداد بتكرار جوابه مرات ثلاث؛ ليتأكَّد ويتعيَّن الطلب بذلك تأكيداً جازماً غير متردد ولا مشكوك فيه.

٨. سبق الظرف (في) للفظة (الرفيق الأعلى) وارد على معنى حقيقة الظرف، وتأويله مؤذن بأمرين جليلين:

الأول: غاية القرب وشدته، وبلوغ منتهاه وأكمله، وهو نحو قوله تعالى: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩﴾ [الفجر:٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ٩﴾ [العنكبوت:٩]،وقوله تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [النمل:١٩].(٣)

الثاني: كمال تواضعه ﷺ إذ عبَّر باللفظ الذي يُستفاد منه طلب الإدخال في مطلق زمرة الأنبياء والصالحين، والصيرورة في جملتهم، من غير إظهار لفضله عليهم، ولا تمييز له دونهم، مع أنه الأفضل صلوات الله وسلامه عليه كما هو معلوم، ولذا تلى الآية الكريمة المشتملة على لفظ (مع)، ليطلب المعيَّة دون تمييز، والقرب دون تفضيل.(٤).

٩. التصدير بـ (اللهمَّ): يفيد دعاء النبي ﷺ ربه ﷻ وسؤاله ذلك الاختيار، وأن يقبل ما اختاره صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا بوَّب له البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه: (باب دعاء النبي ﷺ اللهم الرفيق الأعلى).(٥)

وليس في هذا الدعاء تمنٍّ للموت، أو طلب وسؤال الله ﷻ إيَّاه، وإنما اختيار لأحد وجهين: الموت خير أحدهما، وهذا الاختيار تقدمة لنعيم مقيم، وتحقيق بشرى سابقة

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٢٧٢/٥).
(٢) الإضراب الإبطالي: هو الذي يقتضي نفي الحكم السابق. انظر: النحو الوافي (٦٢٣/٣).
(٣) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٤٤/٣٠).
(٤) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤٤/١٩).
(٥) صحيح البخاري: ك/ الدعوات (٧٥/٨).

بعيدة العهد بسابق النصوص، وقريبة العهد بملائكة مبشِّرة، ومقعد في عالي الجنان قد كُشف.[١]

ولهذا تحقق بدعائه ﷺ ههنا طلباً لهذا الاختيار معنى ما كان يدعو به سابقاً:" اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي".[٢]

ولهذا كان من جميل صنيع البخاري ــ رحمه الله ــ في الصحيح تبويبه بعد (باب: دعاء النبي ﷺ اللهم الرفيق الأعلى) بباب:(الدعاء بالموت والحياة) [٣] وإيراده الحديث أعلاه بياناً للفرق بين الأمرين.[٤]

١٠. قالت عائشة رضي الله عنها:" فكانت تلك آخرَ كلمة تكلَّم بها النبي ﷺ قوله: اللهمَّ في الرفيق الأعلى".[٥] بهذه الكلمة العظيمة خُتمت حياة النبي ﷺ وكانت آخر كلمة نطق بها على الإطلاق، ولا ريب أن الختام يلخِّص أهم المهمات، ويدلِّل على أعظم المدلولات وهو توحيد الله جل جلاله، فعبَّرت هاتين العبارتين عن مجمل ذلك أيَّما تعبير، ودلَّلت على كمال التوحيد من معلِّمه وصاحب دعوته، ورافع لوائه، وذلك صريح في كمال تعلُّقه ﷺ بربه ﷻ.[٦]

(١) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣٨٨/٩-٣٨٩)، فتح الباري (١٣٠/١٠).

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري: ك/ المرضى، باب: تمني المريض الموت (١٢١/٧) رقم (٥٦٧١)، صحيح مسلم: ك/ الذكر والدعاء، باب تمني كراهة الموت لضر نزل به (١٠٧٦) رقم (٢٦٨٠).

(٣) صحيح البخاري (٧٦/٨).

(٤) انظر: فتح الباري (١٣٠/١٠).

(٥) متفق عليه، صحيح البخاري: ك/ المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته (١٠/٦) رقم (٤٤٣٧)، صحيح مسلم: ك/ فضائل الصحابة ﷺ، باب: من فضائل عائشة رضي الله عنها (٩٩١) رقم (٢٤٤٤).

(٦) انظر: الروض الأنف للسهيلي (٤٣٧/٤)، حاشية السندي على صحيح البخاري (٢٠٨/٤).

الخاتمة

وفي الختام أحمد الله ﷻ على ما وفق ويسَّر من اكتمال العمل في هذا البحث، والإفادة من عديد العوائد وجليل الفوائد التي انتظم عقدها خلال مباحثه وفي ثناياه مطالبه وأطراف مسائله، ويحسن تلخيصها في نقاط متتالية سردها كالتالي:

١. التخيير متقارب معنى في اللغة والاصطلاح، فهو اصطفاء وانتقاء متضمن التفضيل لأحد الطرفين على الآخر.
٢. التخيير الذي جاءت به النصوص المتفق عليها وغيرها ووقع للنبي ﷺ كان عرض تفضيل واختيار للدنيا أو الآخرة، يحمل في طياته الإكرام، فاختار صلوات الله وسلامه عليه الباقية على الفانية.
٣. أن الإبهام لازم كثيراً من تفاصيل مسائل التخيير، فبعضها أُغفل وعرف، ــ كتعيين المخيَّر: حيث أُغفل التعيين، وعرف بفهم أبي بكر ﷺ الذي تبعه عليه الصحابة ﷺ، ــ وبعضها أُغفل ولم يعرف: كهيئة التخيير، والملَك الذي جاء به.
٤. الفروق الشاسعة بين المخيَّر بينهما، وكمال العلم بهما جعل الاختيار أجلى ما يكون.
٥. كُرِّر التخيير ثلاث مرات: حال الصحة، وقبيل الوفاة، وعندها، ولم يختلف الاختيار في جميعها، وحمل التخيير وجوابه في ثناياهما من الحكم الجليلة والإكرام المهيب الشيء العظيم مما يبين كريم اختصاص النبي ﷺ ومن سبقه من الأنبياء بهذه الخصلة الشريفة.

هذا، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.

٢. إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد، تحقيق: الفقي، وأحمد شاكر،د.ط، مصر، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٢ هـ.

٣. الاستيعاب في معرفة الأصحاب.ابن عبد البر.تحقيق:البجاوي.دار الجيل.بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ.

٤. أسد الغابة في معرفة الصحابة.ابن الأثير.تحقيق:محمد البنا وآخرون.دار الشعب.لم تذكر رقم الطبعة ولا تاريخها.

٥. أسماء من يعرف بكنيته من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي الفتح الأزدي

٦. الإصابة في تمييز الصحابة.ابن حجر.تحقيق: البجاوي.دار الجيل.بيروت.الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٧. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، محمد الأمين، ط/١،بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٧ هـ.

٨. إعلام الموقعين عن رب العالمين.ابن القيم.اعتنى بها: محمد خطاب.دار إحياء التراث العربي.بيروت.ط/١ ١٤٢٢ هـ.

٩. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم.تحقيق: محمد حامد الفقي الناشر : دار المعرفة، بيروت ط/٢، ١٣٩٥هـ.

١٠. أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور، لابن رجب، تحقيق: محمد الفتيح، الناشر: دار الزمان، السعودية، ١٤٣٣ هـ.

١١. البداية والنهاية.ابن كثير.تحقيق:د.عبد الله التركي.دار عالم الكتب.ط/٢ ١٤٢٤ هـ.

١٢. تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، تحقيق: د. عبد الفتاح الحلو، د.ط، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ١٤٠٦ هـ.

١٣. تخجيل من حرف التوراة والإنجيل للهاشمي،دراسة وتحقيق:أ.د محمود قدح، العبيكان، السعودية، ط/١، ١٤١٩هـ.

١٤. التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، ضبطه: محمد سالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤١٥ هـ.

١٥. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير،أبو الفداء إسماعيل بن عمر،تحقيق:د.البنا، القاهرة، بيروت، شركة دار القبلة، مؤسسة علوم القرآن، دار ابن حزم، ١٤١٩/١ هـ.

١٦. تفسير البغوي (معالم التنزيل)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار طيبة، الرياض، ١٤٢٣/١ هـ. (١٤١/٧).
١٧. تفسير البيضاوي، ومعه حاشية القونوي، وحاشية ابن التمجيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤٢٢ هـ.
١٨. تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، محمد الطاهر، د.ط تونس،الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤ م.
١٩. تفسير الطبري(جامع البيان عن تأويل آي القرآن)،محمد بن جرير،تحقيق:د.التركي،ط/١، القاهرة،دار هجر،١٤٢٢ هـ.
٢٠. تفسير روح البيان، لإسماعيل حقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢١. تفسير غريب ما في الصحيحين.الحميدي تحقيق:د.زبيدة عبد العزيز.مكتبة السنة.القاهرة.الطبعة: الأولى.١٤١٥ هـ.
٢٢. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد،لابن عبد البر،تحقيق: مجموعة من المحققين،د.ط،طبع:المغرب،د.ت.
٢٣. التيسير بشرح الجامع الصغير،للمناوي، زين الدين عبد الرؤوف،ط/٣،الرياض،مكتبة الإمام الشافعي، ١٤٠٨ هـ.
٢٤. الجامع لأحكام القرآن.القرطبي.تحقيق:عبد الرزاق المهدي.دار الكتاب العربي. الطبعة الثالثة.١٤٢١ هـ.
٢٥. حاشية السندي على سنن النسائي، ط/٥، بيروت،دار المعرفة،١٤٢٠ هـ.
٢٦. الديباج على صحيح مسلم، للسيوطي (٩١١ هـ)، تحقيق: أبي إسحاق الحويني، دار ابن عفان، السعودية، ١٤١٦/١ هـ.
٢٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،للألوسي،أبو الفضل محمود،د.ط،إدارة الطباعة المنيرية،دار إحياء التراث العربي، د.ت.
٢٨. الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة. ابن القيم.دار الكتب العلمية.بيروت ١٣٩٥هـ.
٢٩. الروض الأنف، للسهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله،تحقيق: مجدي منصور، د.ط، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.
٣٠. زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، محمد بن أبي بكر،تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، ط/٣، بيروت، مؤسسة الرسالة،١٤١٩ هـ.

٣١. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. الألباني.دار المعارف. الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
٣٢. السنن الكبرى.النسائي.تحقيق:د.البنداري،سيد كسروي حسن دار الكتب العلمية. بيروت (ط/١).١٤١١هـ.
٣٣. شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (١٢١/١).
٣٤. شرح السنة، للبغوي،تحقيق: الأرناؤوط، وزهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ١٤٠٣/٢ هـ.
٣٥. شرح صحيح البخاري.لابن بطال.تحقيق:ياسر إبراهيم.مكتبة الرشد.ط/١ ١٤٢٠ هـ.
٣٦. شرح النووي على صحيح مسلم(المسمى بالمنهاج).دار المعرفة.بيروت.الطبعة العاشرة.١٤٢٥ هـ.
٣٧. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، مذيلاً بالحاشية المسمَّاة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء، للشمني، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
٣٨. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان،تحقيق:الأرناؤوط،ط/٢،بيروت،مؤسسة الرسالة ١٤١٤ هـ.
٣٩. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل،عناية:محمد الناصر، ط/١،بيروت،دار طوق النجاة،١٤٢٢ هـ.
٤٠. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج،عناية:الكرمي،د.ط، الرياض،بيت الأفكار الدولية، ١٤١٩ هـ.
٤١. عمدة القاري.بدر الدين العيني.دار إحياء التراث العربي.بيروت.
٤٢. عمل اليوم والليلة للنسائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة ٢ ، ١٤٠٦، تحقيق : د. فاروق حمادة.
٤٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، تحقيق: الخطيب،د.ط، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩ هـ.
٤٤. الفجر الساطع على الصحيح الجامع، لمحمد الفاطمي، مكتبة الرشد، الرياض، د، ت.
٤٥. الفروق اللغوية،لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد سليم، القاهرة، د.ط، دار العلم والثقافة، د.ت.
٤٦. فقه السيرة، محمد الغزالي، تحقيق:الألباني، الناشر:دار القلم – دمشق،الطبعة:٧– ١٩٩٨.
٤٧. فيض القدير، للمناوي، محمد عبد الرؤوف، ط/٢، بيروت، دار المعرفة،١٣٩١ هـ.

٤٨. كشف المشكل من حديث الصحيحين،لابن الجوزي(٥٩٧ هـ)، تحقيق: البواب، د.ط، دار الوطن، الرياض، د.ت.
٤٩. لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.
٥٠. لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، للسفاريني، بدون بيانات.
٥١. مجمع الزوائد، للهيثمي،علي بن أبي بكر،تحقيق:عبد الله الدرويش،د.ط،بيروت،دار الفكر،١٤١٤ هـ، د.ت.
٥٢. مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع: ابن قاسم، عناية: الجزار، البازط/٣، مصر، دار الوفاء،١٤٢٦ هـ، د.ت.
٥٣. المحكم والمحيط الأعظم.ابن سيده.تحقيق:عبد الحميد هنداوي.دار الكتب العلمية.بيروت.الطبعة:الأولى ٢٠٠٠م.
٥٤. مختار الصحاح، للرازي، د/ط، مكتبة لبنان، بيروت، ١٤١٥ هـ.
٥٥. المدخل. لابن الحاج ، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١ هـ.
٥٦. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لملا القاري، ط/١، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٢ هـ.
٥٧. المسند للإمام أحمد بن حنبل،تحقيق:مجموعة من المحققين،ط/١، بيروت، مؤسسة الرسالة،١٤١٦ هـ.
٥٨. المصباح المنير.الفيومي.المكتبة العلمية.بيروت.
٥٩. المصنف.عبد الرزاق الصنعاني.تحقيق:حبيب الرحمن الأعظمي.المكتب الإسلامي.بيروت. ط/٢.
٦٠. معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول.حافظ الحكمي.تحقيق:أبو عمر.دار ابن القيم.الدمام.ط/١. ١٤١٨ هـ.
٦١. المعجم الأوسط،للطبراني، ،تحقيق:قسم التحقيق بدار الحرمين للنشر،د.ط، القاهرة، دار الحرمين للنشر، ١٤١٥ هـ.
٦٢. المعجم الكبير، للطبراني،سليمان بن أحمد،تحقيق: السلفي، د.ط، القاهرة،مكتبة ابن تيمية، د.ت.
٦٣. معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٣٩٥ هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، د.ط، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩ هـ.

٦٤. المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم، للقرطبي، تحقيق:مستو وآخرون، ط/١،دار الكلم الطيب،دار ابن كثير،بيروت ـــ دمشق، ١٤١٧ هـ.
٦٥. المنتقى شرح الموطأ للباجي، تحقيق: محمد عطا، ط/١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠ هـ.
٦٦. الموضوعات، لابن الجوزي (٥٩٧ هـ)، تحقيق: عبد الرحمن عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ١٣٨٦/١ هـ.
٦٧. الموطأ.الإمام مالك مع شرح الزرقاني.تحقيق:د.الندوي.دار القلم/دمشق ط/١ ١٤١٣ هـ.
٦٨. النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، الرياض، ط/١٥.
٦٩. النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٦٠٦ هـ)، تحقيق: خليل شيحا، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٢/١ هـ.
٧٠. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز،للواحدي،تحقيق:داوودي،دار القلم،الدار الشامية،دمشق،بيروت، ط/١، ١٤١٥ هـ.